القيادة عند القرامطة وأثرها في نمو الحركة "ابو سعيد الجنَّابي إنموذجاً"

د. عقيل عبدالله ياسين
جامعة واسط/ كلية التربية

المقدمة

تعد حقبة العصر العباسي الثاني من أخصب حقب تاريخ الدولة الإسلامية ، نظراً لما تضمنته من غناً فكري وثقافي ساعد على تطوره وازدهاره الأفكار الفلسفية والثقافات الأجنبية الوافدة التي امتزجت بالثقافة والفكر الإسلامي, الأمر الذي أثمر عنه ظهور حركات مختلفة كانت في اغلبها سياسية مخالفة لمبادئ الدين الإسلامي، وكان لهذه الحركات عمليات مسلحة وتنظيم عسكري دقيق ساهم بشكلٍ كبير في طول فترة وجودها .

ومن ابرز هذه الحركات " حركة القرامطة " ، والتي بدأت بدعوتها السرية سنة ٢٦٣هـ ، ومن ثم العلنية سنة ٢٨٣هـ على أكثر أقوال المؤرخين, وقد انقسمت إلى ثلاث تنظيمات بحسب التقسيم الجغرافي الذي اتبعوه في مرحلة الدعوة السرية ومن ثم العلنية ، وهي قرامطة الكوفة والعراق وهم أصل الدعوة ورئاستها وقرامطة الشام وقرامطة البحرين .

ولعل قرامطة البحرين هم من أهم هذه الأقسام, نظراً لما قامت به من أعمال مخالفة لمبادئ الشريعةالإسلامية من جهة وشكلوا خطراً كبيراً على قوافل الحجاج من جهة أخرى .

وكان لقائد ورئيس هذه الطائفة " أبو سعيد الجنَّابي " الدور المهم والرئيس في تنظيم أركانها وترتيب أوضاعها ، ولتسليط الضوء على الدور القيادي لهذه الشخصية فقد اتخذناها موضوعاً لبحثنا هذا, لمعرفة دوره في تأسيس وتنظيم هذه الحركة .

تمهيد

الأوضاع العامة في العراق خلال العصر العباسي قبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع ، لابد لنا من أن نلقي الضوء على أهم السمات السياسية والفكرية التي سادت العصر العباسي الثاني لما لذلك من علاقة مباشرة بموضوع البحث ، فقد شهدت هذه الحقبة من تاريخ الدولة العباسية اضطراباً كبيراً كان شاهداً عليه التغيرات السياسية والفكرية الكبيرة التي شهدها هذا العصر وقد اثر ذلك بطبيعة الحال على باقي مجالات الحياة في العراق ، ولعل من ابرز سمات هذه الحقبة ، هو تحكم العنصر التركي في السلطة ، حتى صار هؤلاء ينصِّبون ويعزلون من أرادوا خدمة لمصالحهم الشخصية وشواهد ذلك وأمثلته كثيرة ، ابتدأت منذ عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) حيث عمل الأتراك مؤامرة مع المنتصر ابنه نجحت في النهاية في قتله وتنصيب المنتصر خليفة [١] .

وحين حاول المنتصر التحرر من سلطة الأتراك عليه ، اتفقوا مع طبيبه الطيفوري [٢] ففصده بمبضع مسموم وقتله بعد ستة أشهر من خلافته [٣] .

ثم اجمع رأيهم على تنصيب احد أبناء المعتصم وهو احمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ) ، وكان من الطبيعي الا يكون له مع الأتراك أمر ولا نهي إذ انهم كانوا يعيَّنون من يشاءون ويعزلون من يشاءون ، ولم يمض عليه وقت طويل حتى قرروا خلعه والإتيان بالمعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ) [٤] ، وحتى هو ايضاً لم يسلم من تسلط الأتراك وانتقامهم رغم انهم من جاء به الى السلطة فقتلوه لمجرد انه عجز عن تأمين المال الذي طلبوه منه [٥] .

وهكذا تتكرر حالات قتل وسمل وعزل الخلفاء ، نتيجة للتسلط التركي على الخلافة ، ومما ساعدهم على استمرار ذلك ضعف الخلفاء الين يختاروهم للخلافة ، وحتى من كان يتمتع منهم بشخصية قوية – كالمعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ), والمعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) ، كانت الإمكانيات المتاحة أمامهم لم تكن تسمح لهم بالقيام بعمل من شأنه إنقاذ سلطتهم من أيدي الأتراك المتحكمين كان من شأن ذلك ان ينعكس سلباً على باقي نواحي الحياة الأخرى ، الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ففي الجانب الاجتماعي نلحظ بوضوح كثرة ثورات العامة بسبب غلاء الأسعار وشحة المواد الغذائية [٦] ، وظهور طبقة جديدة هي طبقة العيَّارين والشطار والتي امتهنت السلب والنهب نتيجة لهذه الظروف [٧] .

اما في الجانب الفكري ، فقد تعددت المذاهب والملل ، وظهرت الفرق والجماعات والحركات السياسية والفكرية ، وقد أشار الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) الى هذا التنوع الفكري في بغداد بالقول " إن قاصديها كانوا من كل جنسٍ ولون " [٨] [وقد تأثرت معظم هذه الحركات بالفلسفة والأفكار الغريبة عن الإسلام ، فجاءت أكثرها منحرفة عن مبادئ الدين الإسلامي ومن الأمثلة على هذه الحركات المنحرفة " حركة الزنج " والتي هددت الدولة واستمرت لأكثر من ١٥ سنة ، واستغل قوادها الظروف السيئة لشريحة واسعة من المجتمع هم طبقة العبيد

(الزنوج) ، وانظم إلى هذه الحركة أيضا العديد من الأعراب والقبائل التي نقمت على الأوضاع الاجتماعية السيئة التي كانوا يعيشونها [٩] ، لذلك تركت آثاراً كبيرة على المجتمع ومن الأمثلة الأخرى على هذه الحركات الهدَّامة " حركة القرامطة " والتي بدأت منذ عام ٢٦٣هـ واستمرت الى نهايات القرن الرابع الهجري ، وقد انظم إليها إعداد كبيرة من الناس ، ولم يقتصر تأثيرها على العراق فحسب بل تجاوزه إلى الحجاز والبحرين وعمان وسوريا وبلدان أخرى كثيرة ، نظراً لأتساع نشاط هذه الحركة وقوتها المستمدة من انضمام أعداد كبيرة من الناس إليها ، كلٌ حسب اتجاهه ، فمنهم من آمن بأفكارها ومنهم من وجد فيها تخليصاً له من ظروفه الاقتصادية والاجتماعية السيئة ، ومنهم من أراد من خلالها معارضة النظام السياسي القائم ، وما الى ذلك من الأسباب كما أدت هذه الظروف الى تطور المنهج الفكري والعلمي للمتصوفة تأثراً بالفلسفة ، إذ كان المتصوفة قبل هذا العصر نموذجا للمنهج العبادي الإسلامي الخالص والمبني على الزهد في العبادة وأداء الفرائض والتمسك بسيرة الرسول الأعظم (ﷺ) والخلفاء الراشدين والصحابة ، فكان منهجهم وسلوكهم الزهدي العبادي مستمدٌ من سلوك أولئك العظام أما في هذه الحقبة وما سبقها بقليل ، دخلت الى مناهجهم ما اعتبره البعض انحرافاً في السلوك والفكر وتأثرا بالفلسفة التي أصبحت محورا مهما في العلوم العقلية والنقلية .ولم يكن المتصوفة جميعا متأثرين بهذا النوع من الفكر المنحرف عن الإسلام ، بل إن البعض ظلوا متمسكين بمنهج الأولين القائم على الإسلام مادة ومنهجاً . إلا أن السمة الغالبة للتصوف – فيما بعد – أصبحت تمشي بهذا الاتجاه – البعيد عن الإسلام هذه خلاصة الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية العامة في العصر العباسي الثاني بشيء من الاختصار نظراً لما يتطلبه منا طبيعة هذا البحث الذي يتركز في شخصية أبو سعيد الجنَّابي احد زعماء القرامطة .

المبحث الأول
حركة القرامطة : أصولها – انتشارها

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن القرامطة هي حركة فكرية هدَّامة ، بعيدة عن الإسلام [١٠] وقد عُرفت بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها (حمدان قرمط) ، وهو من أهل الكوفة [١١] ، كان اكَّار بقَّاراً [١٢] ، ويصفه ابن النديم (ت٣٨٥هـ) بأنه " كان داهياً " [١٣] ويذكر ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) انه " قدم من ناحية خوزستان [١٤] الى سواد الكوفة " [١٥] وسكن حمدان في موضع بالكوفة يسمى (النهرين) وكان يظهر الزهد والتقشف ، ويعمل بسف الخوص ويأكل من كسب يده ، وكان كثير الصلاة والصيام ، حتى فشا أمره ، وتسامعت به الناس وكانت تحضر اليه وتسمع منه ، وبدأ يبث في الناس تعاليمه ، واخذ يدعوهم إلى مذهبه فاستجاب له خلق كثير وكان ذلك سنة ٢٧٨هـ [١٦] وكان يأخذ من كل شخص يستجيب له ديناراً واحداً ويزعم انه للأمام ، حيث اعلمهم انه يدعو الى إمام من آل بيت الرسول (ﷺ) [١٧] . لذا فقد لاقت دعوته نجاحاً كبيراً ثم اتخذ من اتباعه هؤلاء اثنا عشر نقيباً ، وقال لهم : انتم كحواري عيسى ابن مريم [١٨] وكان من جملة الأفكار المنحرفة التي أذاعها ودعا لها إن المسيح قد تصور له بصورة إنسان وقال له : " انك الداعية ، وانك الحجة ، وانك الناقة ، وانك الدابة ، وانك يحيى ابن زكريا ، وانك روح القدس " [١٩] .كما أن آذانهم بعد التكبير ثلاثا والشهادة مرتين كان ، اشهد أن آدم رسول الله ، اشهد أن نوحاً رسول الله ، اشهد أن إبراهيم ... عيسى ... محمداً ... اشهد أن احمد ابن محمد ابن الحنفية رسول الله ، وان يقرأ في كل ركعة الاستفتاح وهي المنزلة على احمد ابن الحنفية ، اما قبلتهم فهي القدس ، والحج الى بيت المقدس وان جمعتهم هي يوم الاثنين [٢٠] . وما إلى ذلك من الأفكار المنحرفة عن الدين والخارجة عن تعاليمه وبعد أن كثر أنصاره ، حاول حمدان تنظيمهم ، وبثَّ دعاته في بغداد وخراسان ، واتخذ من كلواذى – على مقربة من بغداد – مقراً له ليكون قريباً من دعاته ومن الكوفة بوجهٍ خاص وكان مساعده الرئيس في هذا الأمر نسيبه عبدان والذي عهد إليه الإشراف المباشر على الدعاة [٢١] ويبدو ان عبدان لم يكن رجلاً عادياً ، بل كان ذا معرفة وعلم ، يدل على ذلك ما أورده ابن النديم له من عناوين لمؤلفات وكتب ألَّفها بنفسه ، حتى انه يذكر انه الَّف فهرساً لكتبه ومؤلفاته ، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب (النيران) ، كتاب (الملاحم) ، كتاب (المقصد) ، كتاب (الرحى والدولاب) ، كتاب (الحدود والإسناد) ، كتاب (اللامع) ، كتاب (الزاهر) ، وغيرها الكثير [٢٢] كما ذكر عبدان نفسه في كتابه (اليقين) ، مؤلفين آخرين هما كتاب (البرهان) وكتاب (الميزان) [٢٣] ومن بين الدعاة الذين انتدبهم عبدان (زكرويه) الذي أدرك مزاياه فولَّاه منطقة واسعة من السواد ، وأبو سعيد الجنَّابي الذي عيَّنه في جنوب إيران .ويبدو ان حمدان قد شرع – بعد أن كثر أتباعه – بتنظيم الدعوة (القرمطية) تنظيماً دقيقاً لا يغفل فيه حتى التفصيلات الصغيرة ، اذ شرع ببناء مكان لهم سمَّاه (دار الهجرة) يكون وطناً لهم يهاجرون إليه ، ويصف النويري (ت ٧٣٣هـ) ذلك بالقول " ثم أن الدعاة [٢٤] اجتمعوا واتفقوا على أن

يجعلوا لهم موضعاً يكون وطناً ودار هجرةٍ يهاجرون إليها ويجتمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة قريةً فحازوا إليها صخراً عظيماً وفرغوا من ذلك بأسرع وقت ، وانتقل إليها الرجال والنساء وسميت دار الهجرة وذلك سنة ٢٧٧هـ ، فلم يبقَ احدٌ حينئذ ولا بقي احدٌ يخافونه " [٢٥] نستدل من هذا الكلام بأن القرامطة قد أصبحوا قوة كبيرة كثيرة العدد ، وان ذلك كان مهيئاً لهم بسبب انشغال السلطة السياسية بأوضاعها الصعبة . حتى أن الطبري يذكر بصدد ذلك " أن بعض الكوفيين حاولوا تنبيه الحكومة إلى خطرهم – القرامطة – ولكن لم يعاروا التفاتة " [٢٦]اما الجانب الاقتصادي للقرامطة فقد أولاه حمدان عناية كبيرة نظراً لأنه مصدر تمويل هذه الحركة ، فقد فرض على أتباعه العديد من الضرائب ، فضلاً عن ما كان يفرضه عليهم سابقاً وهو دينار واحد على كل شخص ، وضريبة الهجرة وهي دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة ينخرط في الدعوة ، وكانت تستخدم للإنفاق على دار الهجرة ، وضريبة البلغة وهذه يؤديها كل من رغب في الاشتراك بعشاء المحبة ويأكل من خبز الجنة والذي كان يأتيه من إمام الزمان كما يدعي [٢٧] .فضلاً عن أن حمدان فرض على أتباعه تأدية خمس أموالهم وما يكسبون إليه . وزاد على ذلك بأن دعا أهل القرى التابعة له أن يحملوا كل ما يملكون إلى محلٍ واحد ، فلما جمعوه جعله مشاعاً بين أعضاء حركته يتولى توزيعه شخص موكل بذلك [٢٨] .ويظهر لنا من هذا دقة التنظيم الذي أشاعه حمدان بين أتباعه ليكون منهجا وطريقاً ثابتاً لدعوته ، على أعلى درجات التنظيم ، وبتمويل داخلي لا يحتاج معه الى مصادر تمويل خارجية ، كما أن ذلك ينمي ايضاً مظاهر التآلف بين أفرادها ويجلب الكثير من الأتباع للحركة وبعد أن ضمن إخلاص أتباعه ، أمرهم بشراء الأسلحة وأعلنوا الثورة في أكثر من منطقة ، ففي سنة ٢٨٦هـ أعلن ابو سعيد الجنَّابي الثورة في البحرين ، فقتل من حوله من اهل القرى [٢٩] . وفي العراق اعلن حمدان الثورة في الكوفة سنة ٢٨٧هـ وقتلوا من المسلمين جماعة من المسلمين فيهم النساء والصبيان ، واحرقوا المنازل والبيوت ، فوجَّه اليهم الخليفة المعتضد غلامه بدر فقتل منهم مقتلة عظيمة [٣٠] .في نفس الوقت ، ثار قسم منهم في مدينة جنبلا – بين واسط والكوفة – فعاثوا فيها فساداً فقتلوا وسلبوا ونهبوا [٣١] .وفي أوائل سنة ٢٨٩هـ، ثاروا في سواد الكوفة ، إلا أن جيشاً أرسله الخليفة المعتضد استطاع كبح هذه الثورة واسر قائدهم (ابو الفوارس) وأخذوه إلى الخليفة الذي أمر بقتله [٣٢].ثم ان تطوراً مهماً حصل في حركة القرامطة طال زعيم القرامطة حمدان ونسيبه عبدان ، فقد قتل عبدان نتيجةً لتآمر زكرويه مع احد الدعاة وبتحريضٍ من عبيدالله المهدي ، أما حمدان فقد اختفى ولا يعرف مصيره على وجه الدقة ، وانتهى بذلك دوره في الحركة القرمطية [٣٤] .
الا هذه الحركة لم تنته بنهاية زعيمها ، فقد كان الأساس التنظيمي القوي وكثرة الأتباع وارتباطها المتين مع بعضها كل ذلك ساعد في استمرارها بعد اختفاء

مؤسسها ، كما أنها – على ما يبدو – لم تتأثر بالمشاكل الداخلية التي اعترضت الحركة وأدَّت إلى مقتل عبدان واختفاء حمدان .

حركة القرامطة بعد حمدان قرمط

لم تتوقف حركة القرامطة بعد حمدان ، بل استمرت بصورة أكثر قوة مما كانت عليها ، وللأسباب التي ذكرناها ، ففي سنة ٢٨٩هـ قام زكرويه بن مهرويه بمحاولة تخفيف ضغط جيوش الخلافة العباسية على قرامطة الكوفة بالثورة في الشام واستمالة بعض الأعراب القريبين من الكوفة من قبائل أسد وطئ وغيرهم ، فخرج بالشام فأخذوا يقتلون ويسلبون ويقطعون طريق الحجاج ثم عملوا على التقرب من العراق نحو الكوفة لتخفيف الضغط على أصحابهم هناك [٣٥] .

وكان لهذا العمل أن يوسع رقعة البلاد التي يحاول هؤلاء التوسع على حسابها ، فأنهم كانوا ينشطون في أكثر من مكان ويعملون على أكثر من جبهة .إلا أن الصراع فيما يبدو كان قد عرف الطريق إلى دعاتهم وكبار قادتهم ، فبعد ما جرى على حمدان وعبدان ، جاء الدور هذه المرة على زكرويه ، فقد عُين كزعيم لقرامطة العراق بعد حمدان الا انه سرعان ما اضطر للاختباء بسبب تهديد أتباع عبدان له ، وعدم اتفاقه مع باقي دعاة القرامطة [٣٦] .وقد ركز زكرويه نشاطه باعتراض قوافل الحجاج المسالمين وكان يقتل ويسبي ويأخذ الأموال ، حتى قدَّر اليافعي (ت ٧٦٨هـ) مجموع ما قتل منهم عشرون ألف إنسان ، وما صادره من الأموال تجاوز ألف ألف دينار [٣٧] .وضلت القرامطة كقوة عسكرية تسبب الاضطرابات والمتاعب في أجزاء واسعة من الخلافة الإسلامية ، حتى تمكن الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) من توجيه ضربة قاضية لهم فأضمحل أمر من بالسواد منهم [٣٨] .أما قرامطة البحرين فقد ضعف أمرهم نهاية القرن الرابع الهجري واستطاعت قبائل البحرين أن تستغل هذه الفرصة واخذوا ينازعونهم السيادة ، فأخذت بنو ثعلب منهم الإحساء ، بينما تغلبت بنو مكرم عمان وطردوهم منه [٣٩] .وقرامطة الشام فقد تولى بركياروق (٤٨٧-٤٩٨هـ) مهمة القضاء عليهم وإزالة خطرهم من بلاد الشام وتوابعه ولم يتبق منهم سوى جماعات صغيرة تفرقت في البلاد الإسلامية [٤٠] .

المبحث الثاني

أبو سعيد الجنَّابي ودوره في الحركة القرمطية

اسمه ونسبه : هو الحسين بن بهرام الجنَّابي [٤١] ، داعٍ من دعاة القرامطة ، أرسله حمدان الى البحرين ليدعو الناس هناك لمذهبهم [٤٢] .وقدً اشتهر بكنيته ابو سعيد حتى غلب على اسمه [٤٣] ، أما نسبته (الجنَّابي) فهي نسبة إلى (جنَّابة) بلدة صغيرة من سواحل البحرين [٤٤] .ومن ذلك يتضح لنا سبب إرساله للبحرين ، حيث أن

ولادته هناك يجعله اعرف الناس بأهل هذا البلد ونواحيه ، ونسبته إليهم تجعل الناس ينجذبون إليه كونه ابن بلدهم .

انضمامه للحركة

ذكرنا سابقاً ان عبدان كان المسؤول عن تعيين الدعاة والإشراف عليهم ، وكان ممن اختارهم ليكون داعيته في مناطق البحرين والقطيف وبعض المدن الفارسية المجاورة ابو سعيد هذا ، وكان دقَّاقاً – يبيع الدقيق – فعنى بتدريبه وتحويله الى داعية [٤٥] وقد لاقى في دعوته هذه نجاحاً كبيراً ، مستغلاً – بصورة جيدة – الظروف والمناخ الملائم الذي تهيئ له هناك ، ومن ذلك ان سكنة تلك المناطق كانوا في الغالب من الأعراب البعيدين عن الروح الإسلامية القوية ، والمتبرمين من الأوضاع السيئة التي كانوا يعيشونها [٤٦] فضلاً عن لجوء أعداد كبيرة من الزنوج الى تلك المناطق بعد قمع ثورتهم في العراق ، وقد استفاد كثيراً منهم نظراً للسهولة التي جرى فيها كسبهم تحت طاعته [٤٧] لذا فقد شكلت تلك الظروف الأرضية الخصبة التي تحرك من خلالها ابو سعيد وكسب أنصاره وقوَّى مركزه .

وكان تنظيم الدعوة القرمطية في البحرين لا يختلف عمَّا هو عليه في العراق ، فقد شكلت الضرائب المجموعة من المستجيبين لهذه الحركة الأساس في تمويلها ، وكانت مشاعية الثروة هي ما طُبق بين ابناء الدعوة ، لذا تجمعت لدى ابو سعيد الكثير من الأموال [٤٨] الا انه مع كثرة أنصاره هناك فقد تعرض للملاحقة على يد والي البحرين ، عن طريق بعض الأفراد الذين نقلوا للوالي (ابن بانو) ما يقوم به من ممارسات منحرفة ، فهاجم حصنهم وقتل من وجد فيه منهم ، وتمكن ابو سعيد من الهرب والاختباء منه ، واخذ الوالي ما جمعه من أموال وذلك سنة ٢٨٦هـ [٤٩] وظلَّ ابو سعيد متخفياً حتى كتب اليه حمدان – وكان في كلواذى – بالشخوص اليه ، ولم يكن حمدان وابو سعيد قد التقيا سابقاً ، لأن المسؤول عن الدعاة كان نسيبه عبدان – كما ذكرنا سابقاً – فلما رآه اتضح لحمدان إن ما جرى عليه في البحرين لم يكن بسببه ولا من سوء سياسته وتدبيره ، فأنفذه مرة أخرى على رأس الدعاة الى البحرين ليقوم بإكمال مهمته التي بدأها قبل ان تضطره الظروف للهرب [٥٠] ويبدو إن أبا سعيد قد استوعب الدرس هذه المرة ، لذا عمد الى حماية نفسه ، بعد مدة وجيزة من استقراره هناك ، وذلك بالزواج من ابنة رجل مرموق هو (الحسن بن سنبر) وكان من خواصه وكاتماً لأسراره [٥١] ، وكان ذو سلطة ونفوذ في البحرين [٥٢] . وبذلك يكون قد أمَّن نفسه وأصبح يتحرك بحمايةٍ اكبر مع وجود من يحميه وقد ساعدت الظروف السياسية التي كانت تعصف بالخلافة وانهماك الخليفة المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ) بمحاربة قرامطة الشام بقيادة زكرويه ، ساعدت أبو سعيد في إعادة تعبئة أنصاره وتنظيمهم مرة أخرى ، وقد نجح في ذلك . وقرر بعد ان توطدت أركان الحركة مهاجمة هجر عاصمة الإقليم وتمكن من دخولها ، ثم سار

باتجاه القطيف فقتل وسبى وغنم أموالا كثيرة [٥٣] بعدها أعلن عزمه على المسير نحو البصرة سنة ٢٨٧هـ ، وأنفذ سعاته للحصول على التعزيزات – وقد حصل عليها بالفعل – اذ وصلته ثمانية مراكب محملة بـ ٣٠٠ رجل عندها سار الى البصرة [٥٤] .في نفس الوقت جهَّز الخليفة المعتضد جيشاً بلغ تعداده الألفي مقاتل ، عهد بقيادته الى (العباس بن عمرو الغنوي) والذي ولَّاه البحرين ايضاً وما والاها وعهد اليه بمحاربة القرامطة والقضاء عليهم [٥٥] وضم العباس اليه العديد من الأعراب والمتطوعة ، وسار لقتال ابي سعيد واصطدم الطرفان بمعركةٍ حامية الى ان حجز الليل بينهما ، وعادوا للقتال في الصباح وكان شديداً، تجلَّت فيه حنكة ابو سعيد وقدرته العسكرية ، فأستطاع تطويق جيش العباس والقضاء عليه تماماً ولم يفلت منه احد ، فوقع الجميع بين أسير وقتيل ، وكان العباس ممن وقع في الأسر ، فأمر ابو سعيد بالأسرى فقتلوا عن آخرهم واستبقى العباس فقط [٥٦] ثم انه عاد الى هجر وبصحبته أسيره فبقي اياماً واحضره بين يديه وقال له : امض الى صاحبك وعرِّفه ما رأيت ، فسار العباس الى بغداد وبلَّغ ما طلبه منه ، وكان قد أعطاه رسالةً ملصقة أراد تسليمها للخليفة ، ففتحها فلم يجد شيئاً فيها ، فسأله العباس عن أمرها فقال له : والله ليس فيها شيء ، وإنما أراد أن يعلمني إني انفذتك اليه في العدد الكثير فردَّك فرداً [٥٧] ويبدو أن أبا سعيد قد أراد من خلال ذلك إيصال رسالة إلى الخليفة والسلطة في بغداد بأنه من القوة بمكان لا يستطيع معه أي جيش من هزيمته ، ولا يستطيع معه الخليفة قهره وقد أوقعت هذه الهزيمة وجواب أبي سعيد عند الخلافة موقعاً كبيراً ، ويبدو إن أبا سعيد قد بلغ الغاية التي كان يؤملها منها ، فقد ذكر الطبري على لسان العباس الغنوي يصف ردة فعل الخليفة المعتضد قائلاً : " فقصصت عليه القصة فرأيته يتمعط في جلده غيظاً حتى ظننت انه سيسير اليه بنفسه وخرجت من بين يديه فما رأيته بعد ذلك ذكره بحرف " [٥٨] . وما يؤيد ذلك ، ما حصل حينما عاود ابو سعيد الجنَّابي مهاجمة البصرة مرة اخرى وطلب واليها تعزيزات من الخليفة ، فأن كل ما فعله انه انفق ١٤ ألف دينار لتحصين سور البصرة [٥٩] .وهذا يدل دلالة واضحة على ان هذا الانتصار قد اثَّر تأثيراً كبيراً على الخلافة ، ولم يرد الخليفة هذه التجربة مرة أخرى خصوصاً وانه كان منشغلاً بقرامطة الشام والكوفة في تلك الحقبة على الأقل ، والإمكانيات المتاحة أمامه لا تفي بكل أغراضها لذا عمد الى الاستكانة في مواجهة قرامطة البحرين وقائدهم ابو سعيد ، وتوجيه كل إمكانياته نحو تصفية الوجود القرمطي في العراق والشام خصوصاً اذ انه اخذوا يشكلون خطراً كبيرا على حركة سير القوافل وخصوصاً قوافل الحجاج ، حتى انه امتنع حجاج العراق سنة ٢٩١هـ على اداء الفريضة خوفاً مما قد يلحق بهم من القرامطة من قتل وتسليب وانكفأ ابو سعيد الجنَّابي بعد ذلك على السيطرة على المناطق الداخلية كالقطيف والبحرين والقرى والمدن المجاورة لها وأحكام السيطرة

عليها خلال العشر سنوات التي تلت ، ولم تذكر لنا المصادر التاريخية أي نشاط ملحوظ لقرامطة البحرين وابو سعيد حتى وفاته .

ابو سعيد الجنَّابي ودور المرأة في الحركة القرمطية

لم يقتصر العمل الدعوي للقرامطة على الرجال فقط ، بل تعداه إلى أن تكون المرأة القرمطية عنصراً فاعلاً فيه وقد عمد ابو سعيد الجنَّابي ، الى ايلاء المرأة دوراً مهماً في ذلك ولم يقصره على الرجال ، وينقل مصطفى غالب عن ابو سعيد في اول دعوته قوله " ... وعلى النساء المستجيبات أن يتبرعن بكل ما يملكن من حلي ومتاع ، ويشاركن في الجهود الدعوية والتنظيمية [٦٠] " ، ويشير الى انه اختار بعض النساء ليتولين قيادة التنظيمات النسوية عند القرامطة ، وكان من بين النسوة اللاتي اختارهن ابو سعيد بنفسه هي ليلى ابنته [٦١] .

ويبدو أن ابو سعيد الجنَّابي ، كان قد انشأ في البحرين مدرسة للبنات اسماها (مدرسة الدعوة) ، وذلك ما نستشفه من كلام احد الباحثين في معرض حديثه عن ليلى بنت أبي سعيد حيث ذكر ان ليلى كانت معلمة ومشرفة على المدرسة [٦٢] .

ولم يقتصر دور المرأة على الجانب الدعوي والتنظيمي ، وإنما تعداه الى المشاركة في القتال والدفاع عن دولتهم قام ابو سعيد بهذا الأمر ، فعمد الى اخذ الصبيان فوق الأربع سنوات سواء عبدا او امةً او حرة ونصب لهم العرفاء، واخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان وصارت دعوته طبعاً لهم [٦٣] .وهذا يبين لنا مدى التنظيم العالي والدقيق الذي اتَّبعه ابو سعيد الجنَّابي في الحركة القرمطية ، وانه ركَّز اهتمامه نحو بناء قوة عسكرية تتسم بالولاء المطلق والذي يبتدأ منذ الصغر ، واتجاه جهود ابو سعيد نحو عسكرة المجتمع القرمطي دون النظر الى الفرق بين النساء والرجال ، وهذا كله يبين بما لا يقبل الشك على حنكة ودراية ابو سعيد بالأمور التنظيمية وقدرته الكبيرة على القيادة وفاته قُتل ابو سعيد الجنَّابي في سنة ٣٠١هـ وقد قتله خادم له صقلبي في الحمام [٦٤] ، وتذكر بعض المصادر انه حين قتله استدعى رجلاً من اكابر رؤسائهم وقال له السيد يستدعيك ، فلما دخل قتله هو الاخر ، ثم عاد وفعل نفس الشيء مع شخص آخر ، وهكذا حتى قتل أربعة من كبار القوم واستدعى الشخص الخامس ، إلا انه أحس بالأمر فأمسك بيد الخادم وصاح ، فدخل الناس وقتلوه [٦٥] .وبذلك تنتهي حياة هذه الشخصية التي أثارت الكثير من القلق للدولة العباسية وشغلت الدولة سنوات عديدة بدعوى قامت على الانحراف وأرهبت لسنوات طويلة الناس ، وقتلت وسلبت وعطَّلت الحدود إلا أن الأمر اللافت أن هذه الحركة لم تنته بوفاة مؤسسها ابو سعيد ، وإنما استمرت حيث خلفه ابنه ابو طاهر الذي ارتكبت في عهده أبشع الجرائم ومنها استلاب الحجر الأسود وإخفائه لمدة عشرين عاماً .

الخاتمة واهم الاستنتاجات

لقد توصل البحث إلى النتائج الآتية :-

١- أفرزت الأوضاع العامة السيئة التي عاشتها الدولة العباسية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ظهور حركات فكرية عديدة كان الكثير منها يحمل أفكار بعيدة عن الإسلام ومبادئه لعل أهم هذه الحركات حركة القرامطة .

٢- لقد فرضت ظروف الخلافة ، وسيطرة الأتراك على السلطة وكثرة الاضطرابات والثورات ، استمرار حركة القرامطة وقوتها حيث وقفت الخلافة في بعض الأحيان عاجزة عن الإتيان بعمل حاسم ضدهم .

٣- شكلت قرامطة البحرين مصدراً للقلق والاضطرابات التي جعلت الخلافة العباسية متحرجة في الوقوف ضدها خاصةً في بدايات ظهورها .

٤- لعب ابو سعيد الجنَّابي دوراً كبيراً في تنظيم وإعداد الحركة ويعدّ صاحب الفضل في إدامة هذه الحركة في البحرين وما جاورها بسبب ما فعله إدارة وتنظيماً ، ساهم بشكل كبير في استمرارها إلى القرن الخامس الهجري تقريباً .

الهوامش

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٩/ص٢٢٨ .
(٢) هو إسرائيل بن زكريا الطيفوري كان طبيب الفتح بن خاقان جليل القدر عند الخلفاء والملوك وكان المتوكل يعتمد عليه كثراً حتى انه لما احتجم المتوكل بغير إذن إسرائيل وجد عليه فاشترى غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل له في السنة خمسين ألف درهم وهبها له وسجل له عليها وكان متى ركب إلى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الأمراء وأجلاء القواد وبين يديه أصحاب المقارع . ينظر : ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء، ص٢٠٢ .
(٣) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج٣/ص١٠ .
(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج٦/ص٩٩ .
(٥) المصدر نفسه والصفحة .
(٦) ينظر: الطبري، تاريخ ، احداث سنوات ٢٥١هـ، ٢٥٢هـ،٢٥٣هـ، ٢٦٨هـ، ٢٦٩هـ، ٢٧٠هـ، ٢٧٥هـ، ٢٦٧هـ .
(٧) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص٨٢ .
(٨) الخطيب البغدادي، تارخ بغداد، ج١/ص٤٣ .
(٩) ينظر : الدوري، دراسات ،ص٦٤ وما بعدها .
(١٠) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٦٧ ؛ ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل، ج٢/ص١٤٣ ؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج١/ص١٩٢ ؛ الايجي ، المواقف ، ج٣/ص٦٧٥ .
(١١) الطبري, تاريخ, ح٨/ص١٦٠-١٦١؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦/ص١٢٩؛ابن خلكان, وفيات الأعيان, ج٤/ ص٣٣٦.
(١٢) اكاراً بقاراً : أي انه كان يحمِّل على البقر . ابن النديم ، الفهرست، ص٢٦٥ .
(١٣) المصدر نفسه والصفحة .
(١٤) خوزستان : هي مدينة الاحواز نفسها ، وكان الفرس تسميها قبل الاسلام خوزستان ، والخوز تعني الشعب ، وسميت بذلك نسبةً الى اول من بنى بها وسكنها وهو نافع بن الخوزي . ينظر : الحموي ، معجم البلدان ، ج٢/٤٠٤ .
(١٥) الطبري، تاريخ، ج٥/ص٦٠١ .
(١٦) السمعاني, الأنساب, ج٤/ص٤٧٩؛ ابن الاثير، الكامل ، ج٦/ص١٢٩؛ ابن خلكان, وفيات الأعيان, ج٢/ص ١٤٧.
(١٧) الطبري، تاريخ ، ج٥/ص٦٠١ ؛ ابن خلكان, وفيات الأعيان, ج٢/ ص١٤٧.
(١٨) المصدر نفسه والصفحة .
(١٩) المصدر نفسه /ص٦٠٢ .
(٢٠) ينظر : ابن الاثير، الكامل ، ج٦/ص١٣٠ وما بعدها .
(٢١) عبد العزيز الدوري، دراسات ، ص١٢٠ .
(٢٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص٢٦٧ .
(٢٣) عبدان، اليقين ، ص٣٧ .
(٢٤) المقصود هنا دعاة القرامطة والاسماعيلية .
(٢٥) النويري، نهاية الارب، ج٢/ص٦٢ .
(٢٦) الطبري، ج٥/ ص٦٣٨ .
(٢٧) بندلي جوزي ، تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، ص١٦٣ .
(٢٨) المصدر نفسه والصفحة .
(٢٩) ابن الاثير، الكامل، ج٦/ص١٦٦ .

(٣٠) الطبري، تاريخ، ج٥/ص٦٨١ .
(٣١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١/ص٨١ .
(٣٢) المسعودي ، مروج الذهب، ج٤/ص٢٠٢ .
(٣٣) زكرويه : هو زكرويه بن مهرويه احد دعاة حمدان قرمط ، وكان قد وجهه الى بلاد الشام مع من وجه من الدعاة . وكان زكرويه يزعم انه من ولد الحسين بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) . قتل سنة ٢٩٤هـ . ينظر : الرافعي، مراة الجنان ،ج٢/ص٢١٨ .
(٣٤) النويري، نهاية الارب ، ج٢/ص٢٢٩ .
(٣٥) المسعودي, التنبيه والأشراف, ص٣٢٢؛ ابن عساكر, تاريخ دمشق, ج٤٣/
(٣٦) عبد العزيز الدوري، دراسات، ص١٢٥ .
(٣٧) مراة الجنان ، ج٢/ص٢٢٢ .
(٣٨) ابن الاثير، الكامل، ج٨/ص٥٨ .
(٣٩) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤/ص١٥٨ .
(٤٠) المصدر نفسه، ج٩/ص٣٧ .
(٤١) السمعاني، الانساب، ج٢/ص٨٩ ؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢/ص١٥٠ ؛
(٤٢) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج١٣/ص٤٧٥ .
(٤٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢/ص١٥٠ .
(٤٤) الحموي، معجم البلدان، ج٢/ص١٦٦ ؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٢/ص١٩٨ .
(٤٥) ابن حوقل، صورة الارض، ص٢٥٨؛ الذهبي, سير أعلام النبلاء,
(٤٦) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٩٥, ابن خلكان, وفيات الأعيان, ج٢/ص١٤٧؛
(٤٧) ميكاييل دي خوي، القرامطة، ص٥٢ .
(٤٨) ابن حوقل، صورة الارض، ص٢٢٨ .
(٤٩) ابن الاثير، الكامل، ج٦/ص١٩٢ .
(٥٠) ابن حوقل، صورة الارض، ص٢٥٨ .
(٥١) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج٢٥/ص١٦ .
(٥٢) ميكاييل دي خويه ، القرامطة، ص٤٢ .
(٥٣) الطبري، تاريخ، ج٥/ص٦٢٩ .
(٥٤) ميكاييل دي خويه، القرامطة، ص٤٢ .
(٥٥) الطبري، تاريخ، ج٥/ص٦٣٢ .
(٥٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١/ص٨١ ؛ ابن خلدون، العبر، ج٣/ص٤٣٧ .
(٥٧) ابن الاثير، الكامل، ج٦/ص١٧١ .
(٥٨) الطبري، تاريخ،ج٥/ص٦٣٣ .
(٥٩) المصدر نفسه والصفحة ؛ محي الدين اللاذقاني، ثلاثية الحلم القرمطي، ص٤٢.
(٦٠) مصطفى غالب، القرامطة بين المد والجزر، ص١٧٠ .
(٦١) المصدر نفسه والصفحة .
(٦٢) المصدر نفسه ، ص١٩٤ .
(٦٣) محي الدين اللاذقاني، ثلاثية الحلم القرمطي، ص١٠١ .
(٦٤) ابن الاثير، الكامل، ج٦/ص٢٦٧ ؛ ابن خلكان, وفيات الأعيان, ج٤/ ص٣٣٧؛
(٦٥) الطبري، تاريخ، ج٥/ص٦٨٨ ؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦/ ص٢٦٧ .
(٦٦)

المصادر والمراجع

اولاً : المصادر
* ابن الاثير، عز الدين علي بن ابي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) .
١- الكامل في التاريخ ، تحقيق : خليل مأمون شيحا ، ط٢ ، دار المعرفة (بيروت ٢٠٠٧)
* الايجي ، عضد الدين عبد الرحمن بن احمد (ت ٧٥٦هـ) .
٢- المواقف، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ، ط١١، دار الجيل ، (بيروت ١٩٩٧) .
* البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ) .
٣- الفرق بين الفرق ، دار الآفاق الجديدة ، (بيروت ١٩٧٧) .
* ابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد الظاهري (ت ٥٤٨هـ) .
٤- الفصل بين الملل والنحل ، مكتبة الخانجي ، (القاهرة د.ت) .
* الحموي ، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) .
٥- معجم البلدان ، دار الفكر (بيروت د.ت) .
* ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ) .
٦- صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت ١٩٩٢) .
* الخطيب البغدادي، احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) .
٧- تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية (بيروت د.ت) .
* ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) .
٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار القلم (بيروت ١٩٨٤) .
* ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ) .
٩- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروتت) .
* الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .
١٠- تاريخ الاسلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط١، دار الكتاب العربي (بيروت٧)
١١- سير اعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت ١٤١٣هـ) .
* الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢١٢هـ) .
١٢- تاج العروس ، تحقيق :مجموعة من المحققين ، دار الهداية .
* السمعاني ، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت٥٦٢هـ) .
١٣- الانساب ، تحقيق : عبدالله عمر البارودي ، ط١، دار الجنان للطباعة (بيروت ١٩٨٨)
* الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ) .
١٤- الملل والنحل ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة (بيروت ١٤٠٤) .
* الصفدي، صلاح الدين بن ايبك (ت ٧٦٤هـ) .
١٥- الوافي بالوفيات ، دار احياء التراث ، (بيروت ٢٠٠٠) .
* الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ) .
١٦- تاريخ الرسل والملوك ، دار الكتب العلمية ، (بيروت د.ت) .
* عبدان ، الداعي القرمطي (ت ٢٨٦هـ) .
١٧- شجرة اليقين ، تحقيق : عارف تامر ، دار الافاق الجديدة (بيروت ١٩٨٢) .
* ابن كثير ، اسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ) .
١٨- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، (بيروت د.ت) .
* المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ) .
١٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار صعب (بيروت د.ت) .
* ناصر خسرو ، قادياني (ت ٤٨١هـ) .

٢٠- سفرنامه ، تحقيق : يحيى الخشاب ، ط١ ، (القاهرة ١٩٤٥) .
* ابن النديم ، محمد بن اسحق (ت ٣٨٥هـ) .
٢١- الفهرست ، دار المعرفة ، (بيروت ١٩٧٨) .
* النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) .
٢٢- نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ٢٠٠٤) .
* اليافعي، ابو محمد عبدالله بن اسعد (ت ٧٦٨هـ) .
٢٣- مرآة الجنان وعبرة اليقضان ، تحقيق : خليل منصور ، دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٨٨) .

ثانياً : المراجع

* بندلي، جوزي
٢٤- تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، دار الروائع ، (بيروت د.ت) .
* حسن ابراهيم حسن
٢٥- تاريخ الاسلام السياسي ، مكتبة النهضة العصرية ، (القاهرة ١٩٦٤) .
* عبدالعزيز الدوري
٢٦- دراسات في تاريخ العصور العباسية المتأخرة ، مركز دراسات الوحة العربية ،٢٠٠٧) .
* محي الدين اللاذقاني
٢٧- ثلاثية الحلم القرمطي ، مكتبة مدبولي ، (القاهرة ١٩٩٤) .
* مصطفى غالب
٢٨- القرامطة بين المد والجزر ، دار الشروق ، (بيروت د.ت) .
* ميكاييل دي خوي
٢٩- القرامطة ، ترجمة : حسني زينة ، دار ابن خلدون ، (بيروت ١٩٧٨) .